

بنية الفجاء الكروي في رواية الخيل تموت واقفة

أو ما تبقى من ذاكرة قير لعبد القاهر بن سالم

الدكتورة: فوزية بوكايس

الطالبة: مرسل رشيدة

جامعة طاهري محمد - بشار - الجزائر

جامعة طاهري محمد - بشار - الجزائر

تعد الذاكرة المحور الأساس في بناء رواية الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير لعبد القادر بن سالم حيث شكل الاسترجاع أهم تقنية استند عليها المبدع، ذلك لأن الاسترجاع يمنحك حرية مطلقة في خوض الماضي وتمديده داخل الرواية، لأن الذاكرة هي مستودع الأحداث ومخزن الحكايات، ولعل سرد المبدع بضمير المتكلم سهل عليه التنقل بواسطة ذاكرته وذاكرة الآخرين، ليكشف خفي ومستور الذاكرة الجماعية لقير، سيما وأنه مثل جزء منها لا يتجزأ، فلم يكن للحاضر فيها دور يذكر باستثناء بعض العبارات التي تربط هذه الأحداث بحاضر المبدع، فحتى الاسترجاع والاستباق في الرواية كان من الماضي الجميل.

الكلمات المفتاحية: الذاكرة، الاسترجاع، الخيل، المرأة، الخيل تموت.

The Structure of the Narrative Space in the Novel "The Horses Die Standing" Or "the Rest of the Memory" of Kir Abdul Kadir ben Salem

Abstract: Memory is the basic axis in the construction of the novel entitled "The horses die standing" or the rest of Ben Salem Abdul Kadir's memory, where the form of retrieval is the most important technique on which the creator relied on. This is because retrieval gives you absolute freedom to wade through the past and extend it within the novel, for memory is the events warehouse and the stories storehouse, and perhaps the creator's narration in the speaker's conscience is easy for him to navigate by his memory and the memory of others, revealing to reveal the cryptic and sheltered collective memory from the reader, especially since it is an integral part of it. The present had no role in it, except for some expressions linking these events with the creator's present, even the retrieval and anticipation in the novel was a beautiful past.

Keywords: Memory, retrieval, horses, woman, horses die

تاريخ تسليم البحث: 10 فبراير 2017.

تاريخ قبول البحث: 14 نوفمبر 2017.

بنية الفضاء السردي في رواية الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير ————— مجلة فصل الخطاب

1- بنية الفضاء النصي:

1. أ. العنوان:

قد أصبح العنوان هاجسا كبيرا لدى الدارسين، إذ يعد مجرد جمل ترسم على أغلفة الكتب أو كلمات براءة تجذبنا تجاه النصوص والروايات، فلا نوليها اهتماما بل أصبح في ظل الدراسات النقدية المعاصرة عتبة من عتبات النص إذ "لا يمكننا الانتقال بين فضاءاته المختلفة دون المرور من عتباته ومن لا ينتبه إلى طبيعة ونوعية العتبات يتعثر بها، ومن لا يحسن التمييز بينها، من حيث أنواعها وطبائعها ووظائفها يخطئ أبواب النص فيبقى خارجه"¹ وقد كان لجينيت الفضل الكبير في الاهتمام بالعنوان وكل ما يحيط بالنص إذ رأى أنها تساعد في بناء النص ورأى "أنّ النص / الكتاب قلما يظهر عاريا من مصاحبات لفظية أو أيقونية تعمل على إنتاج معناه ودلالته كاسم الكاتب والعناوين والإهداء.. " ² لذلك ارتأينا أن يكون العنوان أولى العتبات التي نلجها ابتغاء مشاكسته محاولين استخراج مكنوناته وخفاياه، فالنصوص الإبداعية لمجرد خروجها عن اللغة العادية تصبح انزياحا لذلك "فاللغة الإبداعية ما هي إلا انزياحات مقصودة تعتمد التحدث إلى الآخرين بلغة غير اللغة التي يتحدث بها الناس جميعا"³ وهذا ما ينطبق على عنوان هذه الرواية، باعتبار أنه يحتمل العديد من القراءات، وعليه يمكن أن يخضع العنوان للتجزئة إلى مقطعين:

الخيال تموت واقفة _____ المقطع أ / أو ما تبقى من ذاكرة قير _____ المقطع ب
المقطع أ:

إنّ ما يثير انتباهنا لفظة "تموت" فعل مضارع يدل على تواصل الفعل وعدم انقطاعه والموت كما نعرف يقع مرة واحدة لا مجال للتكرار فيه، والمبدع جعل منه فعلا قابلا للاستمرارية والتكرار ما يعكس استمرارية هذا الحدث الأليم داخل نفسيته وداخل اللاشعور الجمعي لهذه الجماعة برمتها (سكان قير) وإلاّ ما المانع من أن يقول "الخيال ماتت واقفة" فالفعل المضارع تموت وإن بدا لنا عاديا يستعمل كل يوم إلاّ أنّ دلالاته أكبر من ذلك بكثير، فهي لفظة معبرة عن إحساسه الدفين على زمن ومكان لم يبق منه إلاّ القليل إذ فعل الموت لا يزال متواصلا في مخيلته. أما عن لفظة الخيل وطريقة عيشها فإنّها تنام واقفة" إذ تتميز بقدرتها على الاسترخاء والراحة وهي واقفة، لأنّ الله قد حباها بجهاز الإسناد (stay apparatus) وهو الجهاز الذي يستطيع الحصان بواسطته الوقوف لفترات طويلة مستندا على أوتار العضلات، وبعض الأربطة التي تساعد على النوم واقفا دون الاستناد على العضلات"⁴.

توظيف الروائي للموت بدلا من النوم يشكل انزياحا فما النوم إلاّ موت مؤقت مصداقا لقوله تعالى: "الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسعى إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"⁵ أي أنّه يتوفى الأنفس الوفاة

الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام⁶، وكأنَّ المبدع أراد القول أنَّ الموت الجماعي لخيول قير جعل الأمر لا يصدق، في محاولة منه لبعث بعض الأمل في داخله بعد موتها، حيث لفظة "واقفة" قد أعطت بعض التفاؤل في نفسية المبدع، فجعل موتها شبيها بالنوم ينتظر استيقاظها، أو بالأحرى عودة الأيام الخوالي: أيام الحرث والحصاد... فلفظة "واقفة" هي الرابط الذي يحيلنا على جملة "الخيول تنام واقفة" فشكلت استعارة بليغة وذلك بحذف المبدع للمشبه به وإبقائه على ما يدل عليه في السياق اللغوي "واقفة" لأنَّه يمكن أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة⁷.

شكل هذا المقطع أيضا ثنائية متناقضة الحركة / السكون والمتمثلة في السقوط / الوقوف، فالسقوط شكل من أشكال الموت إلَّا أنَّ المبدع تخطى عنه ولم يستعمله في العنوان، بل عبَّر عنه من خلال المتن فوصف لحظات موت الخيل دون مرض أو حتى أعراض تسبق هذا الموت. بعبارة دالة تعكس مدى الحزن والأسى، وتشكل صورة لموت "عودة الماصة" إذ يصف موتها بطريقة وكأنَّه كان حاضرا في تلك اللحظات، كيف لا وهو واحد من سكان قير، فالخيول في الواقع ماتت إلَّا أنَّها ظلت في ذاكرة المبدع وسكان قير فجعلها واقفة شامخة شموخ ناسها رافضا لفكرة طمها بالتراب، فجعل لها حياة أخرى داخل روايته لعله يحيى بها ما تبقى من ذاكرة قير "العجاب" كما يحلوه تسميتها، فخيول قير لن تدفن كما تدفن باقي الكائنات، لأنَّها تمثل الذاكرة وأي ذاكرة فهو يرى في دفنها القطيعة مع الماضي والأصالة وكل ما يربط بينهما.

فالخيول رمز للارتباط بالأرض وبالوادي وبقير العجاب وهي رمز للخير كما وصفها خير الأنام صلى الله عليه وسلم "الخيول معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"⁸ وهي تشكل للإنسان وخاصة سكان الأرياف والبيوادي رمز للخير والخصوبة والفخر، وقد تكون أحب إليهم من أبنائهم وأهلهم كما جاء على لسان أبي ذر في عيون الأخبار "ما من ليلة إلَّا والفرس يدعو فيها ربه ويقول اللهم سخرتني لابن آدم وجعلت رزقي بيده فاجعلني أحب إليه من أهله وماله، اللهم أرزقه وارزقني على يديه"⁹ فالخيول عند العرب أعز من الولد وعلاقتهم بها تعود لقرون خلت، وأنَّ هذا الكائن هو الذي يربطهم بالأصالة والانتماء لأنَّ العودة عند القبيلة هي حياة ثانية، هي الأرض، الوجود، وربما الموت¹⁰.

المقطع ب: أو ما تبقى من ذاكرة قير...

حرف العطف يربط بين المقطعين أ وب يفيد: الإباحة والتخيير "...والإباحة معناه اختيارا واحدا من المعطوف أو المعطوف عليه أو الجمع بينهما"¹¹ فيأتي الجمع بينهما هو الأنسب، لأنَّ الخيل جزء من كل وهذا الكل هو ذاكرة قير وهنا لا يمكننا أن نختار واحدا منهما وإنَّما الاثنين معا. أو ما تبقى من ذاكرة قير... "توحي بحزن وأسى وماضي جميل في ذكريات المبدع وتوحي بانتمائه إلى قير المكان والزمان معا فهي جملة موحية ومعبرة عن انفطار قلب المبدع من فراق معنوي وشدة شوقه

بذبة الفضاء السرحي في رواية الخيل تمويه واقعة أو ما تبقى من ذاكرة قير — مجلة فصل الخطاب
لقبر ما قبل بناء سد جرف التربة كان الواد في سنواته الأولى، وقبل أن يخنق جبروته سد جرف
التربة¹².

هذا الجزء من العنوان يبين للقارئ مدى اعتزاز المبدع وفخره بالأرض وحنينه لها،
وعبارة "ما تبقى" تدل على التلاشي والاندثار معا فهي تشترك مع لفظة "تموت" في الحقل الدلالي
نفسه والنسيج واحد والخيط الرابط بينهما هو "الفناء" الذي طال الخيل والذاكرة معا، وكأنَّ
الخيال هي الذاكرة الجماعية لأهل قير، وقد صرَّح بها المبدع مباشرة في المتن في قوله "... هناك من
تكهن بأن موت الخيل وبطريقة مفاجئة، هو نهاية مرحلة خصبة في حياة الناس والاستعداد لمرحلة
أشدَّ شؤماً"¹³ فالشوق والحنين إلى هذه الذكريات في مقابل الحزن على تلاشي هذا الزمن لم
يفارقا المبدع طوال سرده للأحداث.

فالذاكرة هي استحضار للماضي بزمانه ومكانه، فلا الزمان حاضر ولا حتى المكان، وإن
كان هذا الأخير يحتفظ ببعض من أطلاله تبقى الذاكرة تحمل الشوق لهذا الماضي بكل دلالته،
وهي الحنين لهذه الشخصيات التي عايشته هذه الفترة واشتركت مع المبدع في ذاكرته فأصبحت
ذاكرة واحدة هي الذاكرة الجماعية "إنَّ هذا التداخل بين الذاكرتين الفردية والجماعية يطيل من
عمرنا، حتى وإن كان يتم بشكل عكسي، إنَّه يلوح لنا بوعد الخلود"¹⁴. هذا الخلود الذي ينشده
المبدع من خلال روايته فلا ينفك المبدع يجعل من الذاكرة لصيقة بقير المكان الوادي قير الذي
يحمل دالتين معا الزمان والمكان، فقير موجود منذ الأزل إلّا أنَّ قير الذي يقصده المبدع هو قير
حامل الذكريات.

عنوان الرواية جاء بمثابة البكاء على الأطلال، فهو يوحي بحزن الكاتب وشوقه لأيام خلت.
أما النقاط الثلاث في آخر المقطع الثاني فهي تشكل أيقونة تعني بأنَّه مازال للكلام بقية يكتشفها
القارئ داخل المتن، فالعنوان استهلال مهَّد به المبدع لروايته، فهذه النقاط تشكل عنصر التشويق
الذي يحفز القارئ على الولوع داخل الرواية واكتشاف خفاياها وعالمها الذي نسجه المبدع. فقد
يبدو العنوان مطولا إلّا أنَّه يتكون من مقطعين، المقطع الأول يسرد لنا قصة الماصة أما المقطع
الثاني فيسرد لنا قصة السارد، إلّا أنَّهما يمتزجان ويتداخلان، فلكل منهما خصوصيته إذ لا يمكننا
فصلهما عن بعضهما ولا حتى اعتبارهما نصا موحدًا وذلك لوجود رابط خفي يجمع بينهما، يتمثل
في أطلال قير وكلمهما يتميز بجاذبية ما.

1. ب. الشكل:

نجد المبدع قد كتب المقطع أ من العنوان بخط عريض ذي لون برتقالي فاتح مائل للصفرة
ينزع إلى لون الرمال وقت الغروب وهذا نابع من ارتباط المبدع الشديد بالمكان ارتباطا بدًا جليا منذ
الوهلة الأولى، ولم يقتصر هذا اللون على الحروف فقط بل تعداه إلى لون الغلاف كاملا، ولعل
اختيار وقت الغروب في هذه الصورة لم يكن عبثا لأنَّ الدلالة السيميائية لوقت غروب الشمس

وخاصة انعكاسها على الرمل يحيلنا على الليل وبالتالي على الظلام الذي يأخذنا مباشرة إلى اللون الأسود، الذي يرمز لأسمى المبدع وحزنه على كل ما يربطه بغير العجائب، فاللون شكلٌ بؤرة مهمة في رواية الخيل تموت واقفة، فالأسود يحيل أيضا على الصمت الذي يميز الليل والموت وهو لون يحيل أيضا على السيادة والجراة المعبر عنهما من خلال المتن فهي دلالة على فحولة ورجولة وقوة سكان قير"... برزت صدورهم كأسود نهمة، كان الرجل منهم يحمل لوحده شبكة الحصيد فيرميها على ظهر الحمار الذي يفقد توازنه لتوه..."¹⁵ فهو يعبر عن هذا الزمن الذي ولى مع هؤلاء الرجال.

أما المقطع "ب" واسم الكاتب فقد كتبنا بخط أرفع من الأول وبلون أبيض، وهذا يحيلنا إلى التفسير الأول للعنوان بأن المقطع الثاني خاص بقصة السارد، التي فيها احتمال كبير بأنها قصة المبدع فشكلا نسيجا واحدا دلالة على انتماء المبدع إلى قير وإلى ذاكرة قير العجائب والمحبة التي يكنها لهذا المكان فاللون هنا يحيلنا على نقاء قير وصفائه لأنَّ "اللون الأبيض محبب إلى القلوب لأنه يبعث على الأمل والتفاؤل والصفاء والتسامح ويدل على النقاء كما يبعث على الود والمحبة"¹⁶ وهو في نفس الوقت يحيلنا على الموت والكفن والحزن، وهذه الثنائية المتناقضة مجسدة في المتن لأنَّ قير يمثلها معا "... واد قير، الذي أصبح جزء من ذاكرة ذوي منيع، أضى كذلك، هاجس الرهبة والرغبة في أن، لأنه مصدر رزق هؤلاء وفي ذات الوقت قد يفاجئهم بأن يخطف منهم عزيزا"¹⁷.

1. ج. الغلاف:

العنوان جاء منفردا دون عناوين فرعية لفصول الرواية، لأنَّه يشكل خيط الرواية من بدايتها حتى نهايتها فجاء المقطع الأول بارزا لأنَّه العنوان الرئيسي للرواية، فجاءت الفصول مرقمة، مما جعل العنوان بمقطعيه يأخذ الصدارة بلا منازع، لدرجة أن أصبح نصا موازيا يجاور النص الروائي. وأضاف له مؤشرا بصريا متمثلا في صورة الغلاف، التي شكلت هي الأخرى انزياحا رائعا. فتشكل عنوان روايتنا من صورة فوتوغرافية فنية تجمع بين الرمال والنخيل والحصان، ويكمن الانزياح هنا في مباغته القارئ وكسر أفق توقعه، لأنَّ ذهن الإنسان وبصورة عفوية كلما رأى مشهدا للرمال والنخيل أضف لها دون أدنى شك الجمال، غير أنَّ حضور صورة الحصان هنا لها ما يبررها، فهي تخدم العنوان والمتن معا، فشكلت لوحة فنية وإشهارية بامتياز. ولم يغفل المبدع كتابة نوع هذا الكتاب على الواجهة وهو لفظة "رواية" لكي يتسنى للقارئ معرفة محتوى الكتاب فهي الجنسية الأدبية لهذا الخطاب الموجود في ثنايا الكتاب، وبالتالي هي "وظيفة إخبار القارئ وإعلامه بجنس العمل / الكتاب الذي يقرأه"¹⁸.

1. د. الإهداء:

الإهداء هو تقدير من الكاتب وعرفان يحمله للآخرين، سواء كانوا أشخاصا أو مجموعات (واقعية أو اعتبارية)¹⁹ "إلى تلك الأرض التي احتضنتني وأنا صغير" هذه الأرض تمثل الأم وهي رمز للخصوبة، فالأرض هنا ترتبط بمرحلة طفولة الكاتب وتجسد العلاقة المتينة بينه وبينها. إلى أرواح

بنية الفضاء السردي في رواية الخيل تمويه واقعة أو ما تبقى من حادثة قهر — مجلة فصل الخطاب

أولئك الذين رضوا قير العجائب يشعرك الكاتب من خلال الإهداء واشتياقه لتلك الأيام بحرقه كبيرة ووصفه لقير الذي يمثل الحزن والفرح في آن واحد فهو للحياة والموت معا، واشتياقه لأيام الحرث والحصاد، إلى فطاحل قير شعراء الهجمة ف (الفطاحل): السيل العظيم _ والضخم الممتلئ الجسم _ والغزير العلم وقول المولدين لكبار العلماء فطاحل²⁰. فأعطاهم هذه الصفة التي تجمع بين القوة الجسدية والتفوق اللغوي في ميدان الشعر، فشكلوا ثنائية داخل السرد إذ جعل منهم ضيوف الشرف في هذه الرواية، فلا يكاد يخلو فصل من فصولها من ذكر لأبيات هؤلاء الفطاحل، فقدم لهم الإهداء في صفحة الإهداء وشرفهم بتقديم ما جادت به قرائهم في هذا المتن الروائي. وتعتبر هذه الرواية بمثابة البطاقة الفنية لمنطقة العبادلة إذ يقدم هذه الرواية بغض النظر عن أحداثها وتفاصيلها عادات وتقاليد هذه المنطقة الرائعة، فيعطي صورة فنية تجمع بين الأحداث والمكان والزمان الذي حدثت فيه، وما ميزها عن أي منطقة أخرى، فالنصوص الرائعة والتي تستحق العالمية هي التي تصور المحلية وهذا ما جعل من هذه الرواية مميزة شكلا ومضمونا.

2_ بنية الفضاء بعده منظورا:

2. أ. من وجهة نظر السارد:

2. أ. 1. الأمكنة المنغلقة:

المتتبع للأمكنة داخل هذه الرواية لا يكاد يعثر على الأماكن المنغلقة إلا ما ندر، لقد بدا واضحا من خلال الرواية نفور السارد من المدينة " فاضت المدينة بالوافدين من مختلف الجهات... وتغيرت ملامح الناس والمدينة، وتأثر أصحاب القلوب الرقيقة بهذا التحول"²¹. مقطع يبين لنا مدى تأثيره بتحول مدينته من مدينة هادئة إلى مدينة تعج بالسيارات والوافدين من كل جهة، ذلك مقارنة بما كانت عليه وما آلت إليه فاشتياقه لمدينته القديمة الهادئة جعل هذه الصورة الحديثة مكانا منغلقا وآلمه كثيرا هذا التحول.

ويمكن رصدها أيضا في " دار لمقدم" هذا المكان الذي يرمز للجبل والشعوذة، وكأنَّ السارد أراد بحصره في مكان مغلق أن يضع له حدودا وأن يفصح مثل هذه السلوكيات، واللافت للنظر أنه لم يقدم هذا المكان بوصف لأركانه، وأثاثه بل تجاهله تماما كبنية مكانية داخل السرد، واكتفى بذكر ما يحيط به من الخارج " وضعت محفظتي تحت إبطي ووجهتي دار لمقدم الكائنة على منحدر حي الشعبة العتيق القريبة من دار عي لقناوي وجنان باري الماصو..."²² ثم قام بوصف الحضرة التي كان يقيمها لمقدم للنسوة وأعطى السارد لهذا المكان بعدا أسطوريا، حتى وإن كان يدرك أنها مجرد طقوس، يقوم بها لمقدم ليخادع تلك النسوة الساذجات "وكيف يسمون إلى آفاق أسطورية كلما اشتممن البخور وقضمن حبات الجاوي بأسنان تصبح كالحديد..."²³ فهذه الظاهرة لا يمكن حصرها في مكان بعينه بل يمكن أن تجدها في أي قرية أو مدينة.

ونجد السارد تعامل مع هذا المكان بطريقة ذكية، فكان مثل المرض المعدي إن لم يحجر على المصابين به، انتقلت العدوى إلى الكل، فهو وظف انغلاق المكان لخدمة غرض في يتمثل في بناء السرد وغرض إيديولوجي هو إصلاح هذا المجتمع من خلال عزله لهذا المكان ولو فنيا، أما حانة بادري الإسباني فقد أعطاها بعدا آخر فهي تمثل الآخر، هذا الآخر هو الغرب والشركة الأمريكية، وحتى الفراغ الذي سببته الاشتراكية، لأنَّ شرب الخمر عند أهل القرية "في عرف القبيلة نقيصة ومن الكبائر التي لا تغتفر... ويسعى علنا بالخباياطي"²⁴ كان منبوذا على الأقل من أغلبية الناس، فجعله السارد مكانا مغلقا، لا يتردد عليه إلا الأغراب من عمال الشركة الأمريكية أو بعض الأشخاص المنبوذين داخل القرية وجعل منه مكانا غريبا عن القرية وإن كان جغرافيا منتما إليها، فالفراغ الذي سببه تأميم الأرض للشباب جعلهم عرضة لهذه الانحرافات، وحتى احتكاكهم بالأجانب بدأ يؤثر فيهم، وما يمكن استخلاصه من تتبع الأماكن المغلقة داخل الرواية أنَّ السارد نافر منها ورفض لها، فحتى البيت الذي يشكل للكثير من الناس المأوى والأمان لم يأت على ذكره هنا وكأنه يرى في قير البيت الذي اشتاقه وحنَّ إليه فيداً يدخل بالقارئ إلى غرفه الواحدة تلو الأخرى، وذلك من خلال ذكريات أهل القرية.

2. أ. 2. الأمكنة المنفتحة:

شكلت الذاكرة الوعاء الكبير الذي يحتوي مكان وزمان قير وساكنته، فأصبحت مكانا افتراضيا تخزن فيه ذكريات هذا المكان بكل ما يحمله من فرح وألم فالذاكرة هي التي ساعدت المبدع في إعادة بناء هذا النص الروائي، وإعادة تشكيل هذا المكان وتصويره فشخصية السارد باعتبارها مشاركة في الأحداث تعبر عن المكان المتمثل في سهل قير والأرض بشكل خاص، بطريقة تتم عن ارتباطها بهذا المكان وحيا وتعلقها به، فكل الأوصاف التي جاءت على لسان السارد المتماهي مع شخص المؤلف - فيما يخص هذه الأمكنة كانت أوصافا توحى بعشق لهذه الأرض وتعلق لا متناهي بها، وإحساس بالذنب اتجاهها فعلاقته بالأرض علاقة وطيدة وبالتالي بالمكان حيث "تتم وفق قانون الفعل ورد الفعل، إذ بقدر ما يؤثر المكان ويحفر في الإنسان بخصائصه وملامحه، فإنه ينحفر (المكان) بالإنسان وفعالياته المستمرة... وهكذا يتفاعل الحدان وفق علاقة جدلية مستمرة..."²⁵.

سهل قير:

هو مكان منفتح لكن السارد يقصد سهل قير القديم، فحالة السهل المزرية هي التي دفعته إلى الغوص في أعماق ذاكرته، ليعمل خياله لنسج أحداث روايته، التي بناها انطلاقا من واقع مر" كان سهل قير يوحى بزمن لم نكن نتصور أنَّه سيزول..."²⁶ فأغلب الأماكن التي جاء على وصفها داخل الرواية قد تغيرت ملامح بعضها وانمحت أماكن أخرى بأكملها، ذلك أنَّ الأمكنة الموجودة في هذا النص الروائي لها ما يقابلها في الواقع، إلا أنَّ ما يهم في السرد هو الجانب الحكائي التخيلي

بديعة الفضاء السردى في رواية الخيل تمويه واقية أو ما تبقى من ذاكرة قير — مجلة فصل الخطاب
للفضاء، أي الدور الحكائي النصي الذي يقوم به داخل السرد...²⁷ فتعلق السارد بغير مزج الذاكرة بالخيال وشكل صورة إبداعية راسخة وظفها توظيفاً متميزاً، فكانت الذاكرة الفردية والجماعية خزاناً يغترف منه لنسج أسطورة قير العجائب.

وظف الروائي كل ما يربطه بهذا المكان من الشعر الشعبي والعادات والتقاليد واللهجة العامية وحتى الحكاية الشعبية، اللهجات فرأى في كل هذه الأمور المكان الذي يفتقده، ويحاول عبثاً القبض عليه ففيضان واد قير كان محفزاً لذاكرة السارد، فأرجعه إلى سنوات طفولته التي طغت أحداثها على كل الرواية، ما عدا بعض الفقرات والجمال التي توحى بالحاضر، فالسارد يشيد بغير الماضي ويأسف على التفریط في هذا الكثر، فروايته بكاء على أطلال قير وحنين واشتياق لهذا المكان، لكن بصورته التي عهد عليها فسهل قير مكان موجود بالفعل إلا أن السارد وظفه فنياً فكان الفضاء الجغرافي الذي احتوى كلا القصتين، إذ شكل البنية المكانية المهيمنة داخل السرد، فأغلب الأمكنة هي أمكنة مفتوحة لدرجة يشعر المتلقي فيها أن السارد يهرب من الأماكن المغلقة، فارتباطه بالسهل غطى على كل الأمكنة ولم يكن الوحيد فقد كان كل سكان قير معه على حد سواء في هذا الارتباط، وباعتبار أن هذه الرواية رواية صحراء فإذا كان الإنسان في " روايات المدن الحديثة هو مركز العالم التخيلي فإن الكائن إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً هو مركز الألم في رواية الصحراء..."²⁸ وهذا ما ينطبق على واد قير فقد شكّل مركز العالم التخيلي داخل الرواية فهو الذي منح هذه القرية الحياة عند فيضانه وقد يأخذ منهم عزيزاً على حين غفلة" واد قير الذي أصبح جزءاً من ذاكرة ذوي منيع أضحى كذلك، هاجس الرهبة والرغبة في أن..."²⁹

السارد يصور لنا هذا المكان من وجهة نظره الخاصة، المتمثلة في الحنين والاشتياق لهذا المكان، فمن خلال هذا الوصف الذي قدم لنا به الواد يستطيع القارئ استخلاص مدى الحب الكبير الذي يكنه لهذا المكان فلفظة "يبشر" توحى بكل هذه المشاعر، فالبشرى لا تقال إلا على الأخبار السارة، فرغم من الخسائر الناجمة عن فيضانه، إلا أنه يبقى مرحباً به والمقاطع الوصفية الخاصة بالواد كثيرة وسد جرف التربة لم يخنق هذا الوادي وحده بل خنق كل سكان قير "وتأمل أرضه وكأنه يودعها، أو أحس أن السد الذي يتحدث عنه الناس هذه الأيام سوف يقهر إرادتهم، بل ويضمّر عضلاتهم التي خلقت للأرض ولرفع التحدي، مسح على وجهه وأزال بقايا غبار ترسب خلف أذنيه وقد بدأ يصدق أن العام القادم سوف لن يكون كسابقه"³⁰ فبناء السد وتأميم الأرض كانا استثنائياً سلبياً قهر أسود قير... "أنه ما خلق إلا لرجال كهؤلاء برزت صدورهم كأسود نهمة..."³¹.

الأرض:

موضوع آخر تعلق السارد بها فاق كل الحدود حين استعمل اللغة استعمالاً فنياً راقياً في وصفها "كانت الأرض تفوح منها رائحة ندى مبللة بمياه تخمرت مع تربة طينية رخوة، سهلت مهمة المحراث الذي أضحى في يد الحاج منصور طيعاً كقلم فقيه على لوحة ملساء"³² فشبه الفلاح

بالفقيه، وهذا لقداسة هذه الأرض عنده على الأقل، وفي مقطع آخر يصف أسفه على ظلم أهل قير للأرض "الأرض... عندما أسمع الأرض تهدهدي الذكريات، وتمتج في داخلي حلاوة بطعم العلقم... بت أعترف ومن معي أننا ظلمنا هذه الأرض التي ظلت أمينة لنا، تتعري لنلبس وتعطش لنتروي من مائها الزلال..."³³ والأرض مكان منفتح يمثل الحرية للمبدع، وشوقه ولهفته للفضاءات المفتوحة، جعله يهرب من كل ما هو محدود كالبيوت بجدرانها، على الرغم من أن البيت هو الحزن الأول الذي يستوعب الإنسان إلا أنه تجاوزه إلى فضاء أوسع وأرحب، ولعل هذا مرتبط بطبيعة المجتمع فهذا رجولي بامتياز، فالطفل منذ نعومة أظافره إن كانت أنثى فالبيت هو كل عالمها إلى جانب الأم، أما إذا كان ولدا فهو في العي أو في السوق برفقة الأب "كنت وأنا صغير، أتابع هذه الأحاديث حين أرافق الوالد، أستمع بها رواية"³⁴ وبالتالي يتضح سر تعلقه بهذه الأماكن فهي "أماكن الدفء الأولى، المتمثلة بالقرية التي تستطيع أن تصنفها بالرحم الثالث، بعد رحم الأم ورحم بيت الطفولة، والرحم كما هو معروف اسم مكان بمعنى المكان الرحيم، أو المكان الذي يجد فيه الإنسان الرحمة والقرية هي الذاكرة البكرية الأولى، التي يظل مداراة للدفء النفسي، وللسعادة الغابرة طيلة حياة الإنسان، كما تظل مخزوننا لا ينضب لوقود الخيال ووحدة كتلة الأرضة."³⁵

بني عباس:

وصفها وصفا مجسدا فالذي زار هذه المدينة يشعر كأن الكلمات خانتها في وصفها، أما السارد فانتقى كل ما حلى من الألفاظ في تقديمها للقارئ "بني عباس مدينة ليست كباقي المدن، عذراء في صمت الحياي... واد يتفياً نخيلاً غصاً"³⁶ بني عباس يا مرتع طفولتي بعد قير لازلت أحبك رغم الجفاء الذي واجهني به وأنا في أحضانك صغير"³⁷ هذا المكان كان في طفولة السارد مكانا طاردا إذ كانت علاقته ببني عباس علاقة رفض، كان طفلا صغيرا حين ذهب إليها، فحرم من حنا أمه وأسرته "ليلتي الأولى ورغم استعادة أجواء قير مع محمد وبلخير كانت صعبة تخيلت أمة طيلة الليل وافقة لم يزرها النوم ولم تحل لها لقمة"³⁸ قير لم يفارقه البتة، فهو في أعماقه أينما حل وقد شكلت له هذه المدينة لغوا، فجاء وصفه لها من الخارج أكثر من وصفه لها من الداخل، وذلك لطبيعة العلاقة التي تربطه بها إذ كانت منطقة عبور فقط - واصل فيها تعليمه المتوسط - إلا أن حسه المرهف جعله يتعلق بها ويألفها "هذه المدينة الغامضة تثير في نفسي أسئلة لا تزال عالقة إلى اليوم، كم حاولت أن أكتشفها وأنا صغير ولكن سحابة من ضباب حالت دون ذلك... ولكنني لم أتعرف على أهلها، كانوا يمرون قبالي أشباحا كموتى لفظهم واد الساوره الجارف، يبتسمون ولكنهم لا يتكلمون..."³⁹ والأمكنة الموجودة داخل هذه الرواية كثيرة، ولا يمكن رصدها لذا اخترنا نماذج فقط أما امبارك فقد اختلفت نظرتة عن نظرة السارد.

بندية الفضاء السردي في رواية الخيل تمويه واقية أو ما تبقى من ذاكرة قير ————— مجلة فصل الخطاب

بـ وجهة نظر امبارك:

إنَّ ارتباط مبارك وكل سكان قير بالخيال لم يكن مصادفة بل لعله متوارث عن الأجداد، فحيم لهذا المخلوق العجيب وتعلقهم به كان سببا يربطهم بهذه الأرض فالخيال والأرض سيان عند أهل قير، وشكلت "العودة الحمراء" لمبارك الملجأ الذي يقصده كلما ضاقت به "حين تزوجت المسرارة... أصبح يخرج منذ الصباح مرفوقا بالعودة الحمراء إلى السهل"⁴⁰ فامتطاؤه لها كان يشكل له راحة نفسية كبيرة خاصة إذا قصد بها السهل، أما حبه لابنة عمه المسرارة فقد اقترن هو الآخر بحبه للأرض وقير، وكأنها كانت الرابط الذي يشده إلى أصالته وانتمائه لهذه الأرض " فالمكان الروائي ليس بذاته لكن بما يفعله غياب أو حضور الإنسان فيه"⁴¹ لكن بمجرد ضياعها من يده بدأ يفقد كل ملامح الارتباط بهذا المكان.

قد أعطى لنفسه ولابن عمه وعدا بالأ يتزوج إلّا بغريبة عن الديار، وهذا تحد لأعراف القبيلة ومن هنا نلاحظ نفوره من هذا المكان لدرجة نعتة له في أكثر من مرة بالبقعة " لما عاد إلى هذه البقعة كما كان يسميها"⁴² وفي مقطع آخر "وفكر جديا في أن يكون أول من يترك هذه البقعة..."⁴³ فربط قير وسكانه بنفسيته فبعد رفض عمه زواجه بالمسرارة، أصبح لا يطيق المكان ولا أهله خاصة بعد موت عودته "لا يزال امبارك الماصة يتذكر عودته الحمراء التي كانت رمزا لوجوده وللقبيلة كذلك... كان امبارك يدرك أن هذا الكائن هو الذي يربطه بالأصالة والانتماء، لأنَّ العودة عند القبيلة هي حياة ثانية هي الأرض، الوجود، وربما الموت"⁴⁴.

بعد زواج ابنة عمه وموت عودته أصبح يقول " المجنون من يبقى في هذه المدينة الملوثة بأعين الحساد والطفيليين"⁴⁵ فهذا المكان الذي كان يمثل له كل شيء أصبح يلغنه " لعن المدينة وأهلها..."⁴⁶ وأصبح لا يطيق البقاء فيها وأصبح يفكر في الهجرة من هذا المكان "الإنسان _ طبقا لحاجاته_ ينتعش في بعض الأماكن ويذبل في بعضها، وقد تكون نفس الأماكن جاذبة أو طاردة"⁴⁷ ولقد كان تفكيره في الهجرة جديا، إلّا أنَّ ابن عمه أقنعه بالبقاء، على الأقل من أجل أمه ويبدأ انفصاله عن قير بالعمل في الشركة الأمريكية، ويصبح منبرا بالأجانب وبكل ما يربطه بهم وبدأ في الانسلاخ عن أصالته وذلك بتخليه عن ثيابه التقليدية التي تربطه بقير وأصالته وإلّا ما معنى أن يخرج بسرّوَال قصير متشبه بمسيو" لوفن " وشاءت الأقدار بعد زواج ابنة عمه، أن تموت عودته الحمراء وتأمم الأرض ويكتمل النصاب، فما الذي يبقيه مرتبطا بهذا المكان؟ فبعد أن تخلى عن اللباس التقليدي، وكسر حاجزا من حواجز القبيلة، انتقل إلى الخطوة الموالية"⁴⁸.

مراجع البحث وإحالاته:

1 - عبد الحق بلعابد: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم: سعيد يقطين، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص 15.

- 2 - المرجع نفسه، ص28 .
- 3 - بن دحمان عبد الرزاق: أبجديات في فهم جماليات الانزياح، مجلة دورية أكاديمية محكمة يصدرها المركز الجامعي بالوادي، علوم اللغة العربية وآدابها، العدد1، 2009، ص38 .
- 4 - سند بن مطلق السبيعي: الخيل معقود في نواصها الخير، مكتبة العبيكان، 2004، الرياض، ص 113 .
- 5 - القرآن الكريم، الزمر، الآية 42 .
- 6 - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ص2468 .
- 7 - ينظر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص313 .
- 8 - ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري: عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية، 1925، ص153- 154 .
- 9 - ابن قتيبة: عيون الأخبار، ص154 .
- 10- بن سالم عبد القادر: الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير... ، منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة- الجزائر، ط1، 2014، ص27 .
- 11 - عبده الراجحي: كتاب التطبيق النحوي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط2، 1998، ص386 .
- 12 - بن سالم عبد القادر: الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير... ، ص 09 .
- 13 -المصدر نفسه، ص 29 .
- 14 - أميرتو إيكو: تأملات في السرد الروائي، (تر) سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط2، 2015، ص12 .
- 15 -بن سالم عبد القادر: الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير... ، ص 18 .
- 16 - حنان بومالي: سيميولوجيا الألوان وحساسية التعبير الشعري عند صلاح عبد الصبور، مجلة الأثر العدد 23/ ديسمبر 2015، المركز الجامعي ميلة، معهد الآداب واللغات، ص 142 .
- 17 - بن سالم عبد القادر: الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير... ، ص 09 .
- 18 - عبد الحق بلعابد: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، ص 90 .
- 19 - المصدر نفسه، ص 93 .
- 20 - المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية (الإدارة العامة للمجتمعات وإحياء التراث)، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، ص694 .
- 21 -بن سالم عبد القادر: الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير... ، ص32 .
- 22 - بن سالم عبد القادر: الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير... ، ص79 .
- 23 - المصدر نفسه، ص83 .
- 24 - المصدر نفسه، ص 89- 90 .
- 25 - نقلا عن خالد حسين، بن سالم عبد القادر: بنية الحكاية، ص123 .
- 26 - بن سالم عبد القادر: الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير... ، ص20 .
- 27 - بوعوة محمد: تحليل النص السردي، (تقنيات ومفاهيم)، ص100 .
- 28 - المودن حسن: الرواية والتحليل النصي (قراءات من منظور التحليل النفسي)، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2009، ص70 .

بديعة الفضاء المردي في رواية الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير ————— مجلة فصل الخطاب

- 29 - بن سالم عبد القادر: الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير... ، ص 09 .
- 30 - المصدر نفسه، ص 19 .
- 31 - المصدر نفسه، ص 18 .
- 32 - المصدر نفسه، ص 13 .
- 33 - المصدر نفسه، ص 37 .
- 34 - المصدر نفسه، ص 11 .
- 35 - النابلسي شاكراً: جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1994، ص 102 .
- 36 - بن سالم عبد القادر: الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير... ، ص 54 .
- 37 - المصدر نفسه، ص 57 .
- 38 - المصدر نفسه، ص 54 .
- 39 - المصدر نفسه، ص 56 .
- 40 - المصدر نفسه، ص 68 .
- 41 - النابلسي شاكراً: جماليات المكان في الرواية العربية، ص 294 .
- 42 - بن سالم عبد القادر: الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير... ، ص 09 .
- 43 - المصدر نفسه، ص 63- 64 .
- 44 - المصدر نفسه، ص 27 .
- 45 - المصدر نفسه، ص 64 .
- 46 - المصدر نفسه، ص 65 .
- 47 - جماعة من الباحثين: جماليات المكان، عيون المقالات، الدار البيضاء، ط2، 1988، ص 63 .
- 48 - بن سالم عبد القادر: الخيل تموت واقفة أو ما تبقى من ذاكرة قير... ، ص 30 .